دولة الكلام المبطلة الظالمة

ان المعقول المتبادر من حكمة الله في نعمة النطق ومزية الكلام التي ميز بها الانسان وفضله من سائر أنواع جنسه الحيواني هو انها التعبير عما في النفس من العلم ليتعاون الناس بإفضاء كل بما في نفسه الى غيره على تكميل علومهم وتحسين أعمالهم. ولكن الاشرار منهم كفروا هذه النعمة بما أساؤا من استعمالها في الكذب والافك والخلابة حتى قال بعض الاذكياء ان حكمة الكلام وفائدته إخفاء ما في النفس وصرف الاذهان عن الحقائق. وقد أجمع الناس على ما هدت اليه الاديان وقرره الحكماء من مدح الصدق والصادقين، وذم الكذب والكاذبين، الا ما قيل في حال التعارض بين مفسدة الكذب في مسألة معينة ومفسدة أخرى أكبر منها كالكذب على صائل ظالم يريد قتل بريء محترم الدم بما يصرفه عن قتله بانكار المكان الذي يوجد فيه أو غير ذلك، والاسلام يهدي في مثل هذه الحال الى التعمي من الكذب بالتعريض ، ففي حديث عمران بن حصين في البخاري «ان في المعاريض مندوحة عن الكذب» ولكن كثيرا من الناس ينظمون في سلك هذا الاستثناء ما ليس منه كالتعارض بين الصدق وما يخشونه من فوت بعض شهواتهم ومطامعهم غير المشروعة به فيستبيحون الكذب للتوسل به الى تلك الشهوات والمطامع الشخصية أو القومية

اللصوص وقطاع الطرق والشطار المحتالون وشهداء الزور وأصحاب الدعاوي الباطلة ووكلاؤهم كل أولئك وأمثالهم يكذبون لاجل مطامعهم الشخصية. ورجال السياسة من الامراء والوزراء والسفراء ومن دونهم من الوكلاء السياسيين وكتابهم وجواسيسهم — كل أولئك يكذبون لاجل مطامع دولهم ومنافع أممهم ، والفريقان يذمان الكذب مع الذامين ، ويمدحان الصدق مع المادحين ، ولا يعترف أحد منهم بأنه يكذب لدفع الضرر عن نفسه أو قومه أو لجلب النفع لهم كما يعترف من كذب تصريحا أو تعريضا لدفع الصائل الظالم عن البريء الا ان يكون الاعتراف من بعض المشتركين في هذا الاثم لبعض أو لمن يعلم حالهم ممن له صلة بهم

من عجيب أمر الانسان ان الكذب والافك وقول الزور وطمس معالم الحق وتشييد صروح الباطل لم يكن مقصورا على المتكالبين على الشهوات الدنيوية والمطامع المالية

والسياسية ، بل تجاوزهم الى رجال الاديان ورجال المذاهب من أهل الدين الواحد، وهم أجدر بالصدق والتزام الحق، ولكنهم جعلوا الدين الذي موضوعه الهدى وتزكية النفس بالاعتقاد الصحيح والفضائل وسيلة للمال والجاه، فصاروا كطلاب المنافع الشخصية بالسرقة والغصب ونحوهما، وطلاب المنافع السياسية بالبغي والعدوان على الامم والشعوب

وأعجب أمر هؤلاء وأغربه أن فيهم أناسا يتعمدون الكذب على خصومهم، واستباحة أفحش ما حرمه دينهم في سبيل عداوتهم ، لا يبتغون بذلك مالا ولا جاها بل يقصدون التقرب به الى إلههم ، معتقدين انه يرضيه كل ما فيه إيذاء أعدائه، وان كان من الباطل والشر الذي حرمه على أبنائه وأحبائه في معاملة بعضهم لبعض. ومن كان يظن في ربه وإلهه حب الباطل والشر والرضاء بهما فكيف يطمع منه عدوه بالتزام حق أو عمل خير، أولئك الذين يقولون أن المقاصد والغايات الحسنة تبيح الوسائل المحرمة والمبادي السيئة . وان الباطل قد يوصل الى الحق ، والشر قد يؤدي الى الخير، أي انهم يختارون ان يكونوا مبطلين أشرارا مجرمين في الحال ليصيروا أخيارا في المآل

اذا كان علماء الاديان وأولياؤها ، وشيم المذاهب وأنصارها ، يؤلفون الكتب ويدونون الاسفار في تضليل المجادلات والمشاغبات، ليؤيد كل فريق منهم ما يوصف به وينتمي اليه منها، فهل يكثر على عبيد المال، وعشاق المظلمة والجاه، ومنهومي اللذات والشهوات، ومفتوني السلطة والسيادة، ان يقلبوا جميع الحقائق، ويستحلوا جميع المحارم في سبيل التمتع بتلك اللذات، والعلو في تلك الدرجات، والاشراف على الامم والشعوب بالامر والنهي ، وغير ذلك من التصرف والتشريع الذي هو شأن الرب عز وجل؟

ان دولة الكلام المؤيدة بمحافل الكذب والزور والبهتان، والافك والافتراء، والاخلاق والاختراق، والخلابة والتمويه، والتلبيس والتدليس، تعرق بترقي الحضارة وتتدلى بتدليها، وتتسع باتساع دائرة العلوم والمعارف وتضيق بضيقها، فهي مساوقة لدولة الاحكام مؤيدة لها

الكذب شر الرذائل على الاطلاق، فهو مفسد الاديان والتواريخ، ومزيل الثقة بين الافراد والجماعات، ومولد الفتن والحروب بين الامم، وقلما استغنى رذيلة من الرذائل أو فتنة من الفتن عن شد أزرها بالكذب أو أحد جنوده، وحملة بنوده، وما ألجأ الناس الى الكذب هلى شدة قبحه وفحش ضرره والاجماع على ذمه الا عدم التناصف بينهم وترك تحكيم العدل

فيما تعارض فيه منافعهم وتتنازع منازعهم، والاصل في ذلك ان الضعيف هو الذي يكذب على القوي الذي لا يخصمه أولا يواتيه، والقوة والضعف أنواع شتى، فكم من قوي في شيء ضعيف في غيره، فاذا رأيت السيد يكذب على عبده، والمخدوم على خادمه، والامير على السوقة، فلا تظن ان هذا جاء على خلاف الاصل، فان في هؤلاء السادة المخدومين، والافراد الحاكمين، ضعفاء في الاخلاق وقبائح الاعمال، فيتحرون كتمانها عن خدمهم واتباعهم فلا يجدون وسيلة لذلك الا الكذب أو التلبيس والتمويه فيلجؤن اليه مضطرين

الحكومة المستبدة تجعل الشعب الضعيف الخاضع الكذب والرياء حتى يصير ملكة له يفسد عليه أمور دينه ودنياه، وقلما يحتاج رجال هذه الحكومة الى الكذب على شعبهم المستعبَد لانه خاضع لكل ظلم قابل لكل ضيم، وانما يكذب الضعيف على القوي الجائر الذي لا يرضى بالحق، وربّ قوي في شيء ضعيف في غيره فيكذب فيما هو ضعيف فيه. ومن هذا النوع حكومات الامم القوية بالعلم والنظام والاحزاب السياسية فكل حكومة من هذه الحكومات تكذب على نواب أمتها ورؤساء أحزابها في كل ما تعلم أنه لا يرضيهم من أعمالها الاستعمارية وسياستها الخارجية وغير ذلك. ويستتبع ذلك الكذب على أهل المستعمرات وإلباس كثير من الاعمال ثوب زور والكذب على أهل العلم والرأي لا يرجى ان يروج الا بلبس الحق الذي تخشى منه ظهوره، وكذلك كذب الحكومات القوية بالعلم والاستعداد الحربي بعضها على بعض — فلذلك صار الكذب فنا من أدق الفنون وركنا من أركان السياسة

وليعتبر القارئ في ذلك بما نشرناه من قبل من أقوال أقطاب ساسة الحلفاء وكبار وزرائهم في الاسباب الحاملة لدولهم على الحرب وأساسها حرية الشعوب واستقلالها، ومن خطب الرئيس ولسن في ذلك ووجوب تعميمه في جميع الامم والشعوب في الشرق كالغرب ومن قواعده الاربع عشرة التي وضعها لبناء صرح الصلح العادل عليها. تقبلها المتحاربون. ثم (ليعتبر) بقاعدة الصلح الكبرى التي تنشر خلاصتها في المنار وما تنقله البرقيات والجرائد الاوربية من التنازع والمساومة بين الحلفاء على اقتسام البلاد التي نص في معاهدة الصلح على الاعتراف لها بالاستقلال المطلق مع اشتراط قبول المساعدة التي ترضاها بنفسها من الدولة التي تختارها لمساعدتها وما ذكر لفظ المساعدة الا لجعله حيلة لامتلاك البلاد واستعباد أهلها باسم جديد يزعمون ان معناه لا ينافي الاستقلال المقرر والقواعد التي بني عليها. واذا شئت تفصيل هذا الاجمال فانظر ذلك المقال الذي كتبناه منذ بضعة أشهر في (الاستقلال) وتعذر نشره وقتئذ في كل من مصر والشام..